الفصل الأول

الجزيرة العربية وتاريخها القديم

١

صفة الجزيرة العربية[١]

تشغل جزيرة العرب الجنوب الغربي لآسيا، وقد سماها أهلها جزيرة لأن الماء يدور بها من ثلاث جهات في جنوبيها وغربيها وشرقيها، فهي شبه جزيرة، وليس في الأرض شبه جزيرة تضاهيها في المساحة. ويرى علماء الجيولوجيا أنها كانت متصلة بإفريقية في الزمن المتعمق في القدم، ثم فصلها منخفض البحر الحمر الذي يمتد في غربيها، كما يرون أنه كان يغطي جزءاً منها في العصر الجليدي مروج خضراء، وكانت تجرى بها بعض أنهار، ولا تزال تشهد عليها أودية جافة عميقة. ويطل عليها في الجنوب لمحيط الهندي وفي الشرق بحر عُمان وخليج العرب. وتترامى متوغلة في الشمال على حدود فلسطين وسوريا غربًا والعراق وبلاد الجزيرة شرقًا.

وكان جغرافيو اليونان والرومان يقولون إنها ثلاثة أقسام: العربية الصحراوية والعربية الصخرية أو الحجرية والعربية السعيدة، أما العربية الصحراوية فلم يعينوا حدودها ولكن يفهم من كلامهم أنهم كانوا يطلقونها على البادية الشمالية التي تصاقب بلاد الشام غربًا وتمتد شرقًا إلى العراق والحيرة. وكانت تقع في شماليها مملكة تدمر التي حكمتها أسرة الزباء المشهورة. وأما العربية الصخرية فكانوا يطلقونها على شبه جزيرة سيناء والمرتفعات الجبلية المتصلة بها في شمالي الحجاز وجنوبى البحر الميت، وهي التي أقام بها النبط مملكتهم واتخذوا مدينة سلع "بطرا" حاضرة لهم، وامتدت هذه المملكة في عهد الحارث الرابع أوائل القرن الأول للميلاد إلى دمش، غير أن الرومان استولوا عليها سنة ١٠٦م. أما العربية السعيدة فكانت تشمل وسط الجزيرة

---

(١) أنظر في صفة الجزيرة العربية كتب الجغرافية العربية وكتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على (طبع بغداد) ج١ ص٨٦ وما بعدها وكتاب تاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى (الترجمة العربية) ج١ ص١٥ وما بعدها وكتاب "قلب جزيرة العرب" لفؤاد حمزة.

وجنوبيها، أو بعبارة أخرى كل ما وراء القسمين الأول والثاني. وربما دل ذلك من بعض الوجوه على أن هذا القسم الثالث كان يدين بالولاء للدول الجنوبية مثل معين وسبأ.

ويقسم جغرافيو العرب الجزيرة إلى خمسة أقسام، هي: تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن، وتهامة هي المنطقة الساحلية الضيقة المطلة على بحر القلزم أو البحر الأحمر. وتسمى في الجنوب باسم تهامة اليمن، وقد يبلغ عرضها في بعض الأمكنة خمسين ميلاً، وكان العرب القدماء يسمونها الغَوْر لانخفاض أرضها، وهي أرض رملية شديدة الحرارة، وقد قامت بها بعض المرافئ والثغور مثل الحديدة في اليمن ومثل جدة وينبع في الحجاز. ويقع في شماليها ثغر صغير يعرف باسم الوجه، ويظن أنه كان ثغر مدينة الحجر المعروفة الآن باسم مدائن صالح. وفي جنوبي الوجه قرية الحوراء وربما كانت هي الموضع الذي أرسى فيه إليوس جالوس القائد الروماني بجيوشه سنة ٢٤ق.م وهي الغزوة التي أراد بها أن يفتح بلاد اليمن وباءت بالفشل الذريع.

وتمتد في شرقي تهامة سلسلة جبال السَّراة من الشمال إلى الجنوب فاصلة بينها وبين هضبة نجد ومؤلفة إقليم الحجاز المعروف، وتكثر في هذا الإقليم الأودية والمناطق البركانية، والحرات وهي أراض رملية تعلوها قمم البراكين. وإذا وجدت في هذه الأراضي آبار وعيون آذنت بالخصب وقيام القبى الكبيرة مثل المدينة أو يثرب ووادي القُرى في شماليها وهو يقع بينها وبين العُلا وكانت تسمى قديمًا دادان. ومن مدن هذا الوادي قُرْح وكانت تقام بها سوق عظيمة في الجاهلية ومدينةُ الحِجْر أو مدائن صالح وقومه من ثمود. ونزل اليهود ببعض قرى هذا الوادي مثل خَيْبر وفدك، وامتدوا إلى تَيْماء في الشمال ويثرب في الجنوب. وكان ينزل في هذا الجهات قبل الإسلام قبائل عُذْرة وبَلِيّ وجُهَيْنة، وقُضاعة وكانت تمتد عشائرها إلى شبه جزيرة سيناء. وعثر المنقبون في وادى القرى على نقوش عربية جنوبية وأخرى شمالية كالثمودية واللِّحْيانية. وأهم مدن الحجاز مكة واسمها عند بطليموس مكربا (Macoraba) وانت قبل الاسلام تمسك بزمام القوافل المصعدة إلى البحر الأبيض والمنحدرة إلى المحيد الهندى، وكان بها الكعبة بيت أصنامهم حينئذ فكان العرب يحجون إليها ويتَّجرون في أسواقها ويبتاعون ما يحتاجون إليه. وعلى بعد خمسة وسبعين ميلاً إلى الجنوب الشرقى من مكة تقع الطائف، وقد أقيمت على ظهر جبل غزوان، وتحف بها أودية وآبار كثيرة أتاحت للمملكة النباتية أن تزدهر هناك من قديم، وقد عُثر فيها على نقوش ثمودية.

وينبسط الحجاز شرقًا في هضبة نجد الفسيحة التي تنحدر من الغرب إلى الشرق حتى تتصل بأرض العَروض وهي بلاد اليمامة والبحرين. ويسمى العرب جزءها المرتفع مما يلى الحجاز باسم العالية، أما جزؤها المنخفض مما يلى العراق فيسمونه السافلة، بينما يسمون شرقيها إلى اليمامة باسم الوشوم وشماليِّها إلى جبلى طيئ: أجأ وسلمى باسم القصيم، وهو عندهم الرمل الذي ينبت الغَضا وهو ضرب من الأثْل، وإليه يُنْسَبُ أهل نجد فيسمون أهل الغضا. وشمالي نجد صحراء النفود وهي تشغل مساحة واسعة، إذ تبتدئ من واحة تيماء وتمتد شرقًا نحو ٣٠٠ ميل وتزخر بكثبان من الرمال الحمراء، تتخللها مراع فسيحة. وإذا اقتربت من العراق مدت ذراعًا لها نحو الجنوب، فتفصل بين نجد والبحرين متسمية باسم الدهناء أو رملة عالج وهي منازل قبيلتى تميم وضبة في الجاهلية والإسلام، حتى إذا أحاطت باليمامة انبطحت في الربع الخالى وهو صحراء واسعة قاحلة يظن أنها تبلغ نحو خمسين ألف ميل مربع، وهي تفصل بين اليمامة ونجد من جهة وبين عُمان ومَهرة والشِّحْر وحضرموت من جهة ثانية، وتندمج فيها صحراء الأحقاف التي تمتد إلى الغرب فاصلة اليمن من نجد والحجاز. وهذه الصحاري التي تطوق نجدًا في الشمال والشرق والجنوب قفار متسعة، وخيرها القسم الشمالي إذ تكسوه الأمطار في الشتاء حلة قشيبة من النباتات والمراعي. ووراء هذا القسم في الشمال بادية الشام وهي كثيرة الأودية والواحات وبادية العراق أو بادية السماوة، وواضح أنهما لا تعدان من نجد.

وتشمل العروض اليمامة والبحرين وما والاهما. وعَدَّ ياقوت في معجم البلدان اليمامة من نجد، وكانت عند ظهور الإسلام عامرة بالقرى، مثل حِجْر وكانت حاضرتها، ومثل سدوس ومنفوحة وبها قبر الأعشى، ويُقال إنها كانت موطن قبيلتي طَسْم وجديس البادئتين. وقد عُثر فيها على نقوش سبئية متأخرة. وتمتد البحرين من البصرة إلى عُمان وبها كانت تنزل قبيلة عبد القيس في الجاهلية، وهي تشمل الآن الكويت والأحساء وجزر البحرين وقطر، وتكثر في هذا الإقليم الآبار والمياه وخاصة في الأحساء، ومن مدنه القديمة هجر وفي أمثالهم "كالجالب التمر إلى هجر"، والقَطيف وكانت تسمى أيضًا الخطّ وإليها تنسب الرماح الخطية. وفي جنوبي البحرين عمان ومن مدنها صُحار وَدبا وكان بها سوق مشهورة في الجاهلية. وعُرف سكان هذه المنطقة من قديم بالملاحة واستخراج الآلئ.

أما القسم الخامس من الجزيرة وهو اليمن فيطلق على كل الجنوب، فيشمل حَضْرموت وَمهْرة والشِّحْر، وقد يطلق على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة، وهو الإطلاق المشهور الآن.وتتألف اليمن من أقسام طبيعية ثلاثة: ساحل ضيق خصب هو تهامة اليمن وبجلا موازية للساحل هي امتداد سلسلة جبال السراة ثم هضبة تفضي إلى نجد ورمال الربع الخالى، وبها كثير من الأودية والسهول والثمار والزروع بفضل أمطار الرياح الموسمية الغزيرة وقد وصفها القرآن الكريم بأنها "جَنَّستان عن يمين وشمال". وأتاح ذلك لسكانها أن يقيموا فيها دولاً وحضارة منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد إلى أوائل القرن السادس الميلادي. ويُسمى قسمها الشمالي المجاور للحجاز باسم عَسير، وكانت تنزله قبيلة بَجيلة في الجاهلية ومن أشهر مدن اليمن زَبيد وظَفار وصنعاء وعدن ونَجْران. ومن أشهر وديانها تَبالة وبيشة وكانت به مأسدة. وتمتد شرقي اليمن حضر موت على ساحل بحر العرب، فإقليم مهرة، والشِّحْر ومعناه في اللغة الجنوبية الساحل، وتنمو في جباله أشجار الكُنْدُر وهو اللبَّان الذي أشهر به جنوبيّ بلاد العرب في الجاهلية.

ومناخ الجزيرة في جملته حار شديد الحرارة، وتكثر في نجد رياح السموم التي تهب صيفًا، فتشوي الوجوه شيًّا، وألطف رياحها الرياح الشرقية ويسمونها الصَّبا، وأكثرَ شعراؤهم من ذكرها. أما ريح الشمال فباردة وخاصة في الشرق إذ تتحول إلى صقيع في كثير من الأحيان. والأمطار عامة قليلة إلا في الجنوب حيث تهطل أمطار الرياح الموسمية في الصيف، وإلا في الشمال الغربي حيث تهطل أمطار الرياح الغربية شتاء. وكثيرًا ما يتحول المطر إلى سيول جارفة في اليمن وشمالي الحجاز؛ وقد وصف امرؤ القيس في معلقته سيلاً جارفًا حدث بالقرب من تيماء حيث كانت منازل بني أسد. وتقل الأمطار في الداخل ولقلتها سموها غيثًا وحيًا (من الحياة) واستنزلها الشعراء على ديار معشوقاتهم وقبور موتاهم. ومتى أحتسبت الأمطار جفت الأرض وأجدبت وحل الهلاك والفناء على القطعان والرعاء. ولطول ما كان يحدث لهم من ذلك سموا الجدب سنة، فيقولون: أصابتنا سنة أتت على الأخضر واليابس. ومن أجل ذلك كثرت عندهم الرحلة في طلب العُشْب والكلأ، فترحل القبيلة بإبلها وأغنامها إلى مراع جديدة. وليس في الجزيرة بحيرات إلا ما يقال من أن هناك بحيرة ما لحة في الرّبْع الخالي، وليس بها كذلك غابات ولا أنهار جارية.

وفي الجنوب والشرق وقرى الحجاز واليمامة تكثر الزروع والثمار وتتناثر بعض الفواكه، وقد اشتهرت اليمن وما والاها قديمًا بأشجار اللبان والطيب والبخور، كما اشتهرت حديثًا بأشجار البن، وتشتهر الطائف بالكروم، ولم يكونوا يعتمدون عليها وحدها في الخمر بل كانوا يعتمدون أيضًا على مدن الشام. والنخلة أهم الأشجار في الجزيرة كلها. ويتردد على ألسنة شعراء نجد ذكر طائفة من الأزهار على رأسها العَرار والخُزَامي وطائفة من الشجار على رأسها الغَضا والأثْل والأرْطى والسِّدْر (الطَّلح) والحنظل والضَّال والسَّلَم.

أما الحيوان فقد صور شعراؤهم كثيراً من أليفه مثل الخيل والإبل والأغنام ووحشيه مثل الأوعال والظباء والنعام والغزال والزراف وحمار الوحش وأتنُه وثور الوحش وبقره ومثل الأسد والضبع والذئب والفهد والنمر. ودارت الطيور الجارحة على ألسنتهم مثل الحدأة والصقر والنسر والغرب، وقلما وصفوا منهلاً دون أن يذكروا القَطا وهو يشبه الحمام. وذكروا كثيرًا الجراد، وتحثوا عن النَّحْل واشتهرت به هذيل التي كانت تعنى ببيوته وخلاياه. ومن زواحفهم الثعبان والعقرب والوَرَل والضبّ، وفي أمثالهم: "أعقد من ذنب الضبِّ".

الساميـون[1]

تطلق كلمة الساميين على مجموعة من الشعوب في الشرق الأوسط دلت القرابة بين لغاتها على أنها كانت في الأصل تتكلم بلهجات متقاربة تطورت إلى لغات سميت جميعًا باسم السامية أخذًا من اسم سام بن نوح الذي ورد ذكره في التوراة، وهي تسمية اصطلاحية، فليس هناك أمة تسمى بالأمة السامية إنما هناك صلات لغوية بين طائفة من اللغات تدل على أنها ترجع إل أصل لغوى واحد، إذ تتشابه في أصول أفعالها وأزمانها وفي كثير من أصول الكلمات والضمائر والأعداد. وقد قسمها علماء اللغات إلى شمالية وجنوبية وقسموا الشمالية إلى شرقية وغربية، أما الشرقية فاللغة الأكدية (البابلية والأشورية) وأما الغربية فاللغة الأوجريتية (لغة نقوش رأس شمرا) والكنعانية

(١) راجع في الساميين وموطنهم الأول وأسرهم تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج١ ص١٤٨ وما بعدها وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى ج١ ص٨ وما بعدها ومقدمة في تاريخ الحضارات القديمة لعلـه بـاقر (الطبعـة الثانيـة) ج١ ص١١٥ وما بعدها وج٢ ص٢٣٢ – ٣٠٦.

(الفينيقية والعبرية والمؤابية) ثم الآرامية. وقسموا الجنوبية إلى عربية شمالية وهي الفصحى وعربية جنوبية وهي لغة بلاد اليمن وما والاها في الزمن القديم، ثم الحبشية.

وتساءل العلماء عن المهد الأصلي لأسلاف الناطقين بهذه اللغات السامية المختلفة، وتعددت إجاباتهم في هذا الصدد، فمن قائل إنهم نشأوا مع الحاميين في موطن واحد، لعله في شمالي إفريقية أو في ناحية الصومال، ومنه هاجر الساميون إلى بلاد العرب عن طريق باب المندب أو عن طريق شبه جزيرة سيناء، ومن قائل إنهم نشأوا مع الآريين في أواسط آسيا أو في أرمينية، ومن قائل إنهم نشأوا في شمالي سوريا، ومن قائل إنهم نشأوا فيما بين النهرين. ومهما يكن المهد القديم لأصل نشأتهم الذي يتعمق في عصور ما قبل التاريخ فإن الباحثين يتفقون على أن موطنهم في العصور التاريخية هو الجزيرة العربية، فقد نزلوا بها واستقروا فيها وعاشوا حياة مشتركة اكتسبوا خلالها هذا التشابه في لغاتهم.

ودفعهم جَدْب الجزيرة وخصب ما حولها من العراق والشام واليمن إلى الهجرة في موجات يتلو بعضها بعضًا في فترات متباعدة وكأنما كانت الجزيرة تشبه خزانًا كبيراً يفيض على ما حوله في الحين بعد الحين. وأول موجة فاضت من هذا الخزان موجة الأكديين (البابليين والشوريين) خرجت من الجزيرة إلى العراق في أواخر الألف الرابع ق.م وأوائل الثالث فوجدت هناك السومريين وقد عاشوا مدة تحت حكمهم، تأثروا فيها بلغتهم ودينهم وعاداتهم وكل ما سبقوهم إليه في الحضارة والعمران. ولا نمضى طويلاً في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م حتى نجدهم يقيمون مملكة لهم يتخذون حاضرتها مدينة أكَّد كان أهم ملوكها سرجون الأول (في حدود ٢٣٥٠ق.م) الذي مد فتوحه حتى وسعت دولته العراق والجزيرة والشام فكانت تلك أول دولة سامية عُرفت في الشرق الأوسط. ولم تلبث أن انهارت، فقامت على أنقاضها دويلات مستقلة، وتقدمت دولة بابل في أوائل الألف الثاني ق.م فأدعت الأمور إلى نصابها، ومن أشهر ملوكها حمورابي الذي تولى الملك في القرن اثامن عشر ق.م وكان سياسيًّا ومشرعًا عظيمًا، واشتهر بين المؤرخين بمسلته التي سجل عليها في ثلاثمائة سطر شريعته، وهي تصور تصويرًا دقيقًا القانون البابلي القديم. وامتازت هذه الدولة بشخصية سامية حية، فقد ازدهر القانون في عدها وازدهر الأدب بفرعيه من الشعر والقصص. على أننا لا نمضي طويلاً حتى تفد أمم غير سامية من

الشرق- هم الكشيون- فتخرب بابل؛ ولا يلبث الحيثِّيون وهم من أمم آسيا الصغرى أن يقضوا عليها في أوائل القرن السادس عشر ق.م. وبينما كانت بابل تعاني من الكشيين والحيثيين كان إخوانهم الذين هاجروا معهم من الجزيرة العربية ويمموا نحو الشمال فيما بين النهرين وهم الأشوريون ينهضون، ومعنى ذلك أنهم من نفس الموجة الأكدية. وتاريخهم يتضح منذ القرن الرابع عشر ق.م وقد اتخذوا نينوى في بعض عصورهم حاضرة لهم، وكانت دولتهم حربية عسكرية، واستعمروا الشام وآسيا الصغرى واستولوا على بابل وحاربوا مصر، ولغتهم الأشورية تخالف البابلية في بعض خصائصها، وقد ازدهرت في عهدهم علوم الطب والفلك والرياضيات كما ازدهرت فنون الأدب. ولا نصل إلى القرن السابع ق. من حتى تنهكهم حروبهم، ويهجم عليهم الميديون من هضبة إيران، ويستولوا على حاضرتهم نينوى. فتستقل عنهم بابل وتقوم بها الدولة البابلية الحديثة أو دولة الكلدانيني (٦٢٦-٥٣٨ ق.م) الذين اشتهروا باتقانهم لعلم الفلك كما اشتهر ملكهم بختنصر بتخريبه لبيت المقدس. وسرعان ما يقضي عليهم الفرس بقيادة كورش سنة ٥٣٨ ق.م ويخضعون لدولتهم المعروفة بالكيانية. ويدور الزمن دورة وإذا الإسكندر المقدوني في القرن الرابع ق. من يستولى على الشرق الأوسط، وبذلك ينتهي تاريخ هذه الموجة السامية القديمة موجة الأكديين من بابليين وأشوريين.

والموجة السامية الثانية التي خرجت من الجزيرة العربية هي موجة الكنعانيين، وقد بدأت في خروجها منذ أوائل الألف الثاني ق. من ويممت الشام وسواحل البحر الأبيض الشرقية، وأسست هناك مدنًا تجارية مثل صَيْدا وصور وجُبَيْل وبيروت. وكان اليونان يسمون أهل السواحل من هذه الموجة باسم الفينيقيين، وقد أسسوا لهم مستعمرات في إفريقية وآسيا الصغرى والأندلس وهم الذين اخترعوا الخط الأبجدي وعنهم انتشر في العالم. ومن هذه الموجة الأوجريتيون الذين تغلغلوا في شمالي سوريا وقد وصلتنا عنهم نقوش رأس شمرا في شمالي اللاذقية وفيها شعر وحكم. ومن هذه الموجة أيضًا المؤابيون الذين استقروا في شرقي الاردن وأسسوا به مملكة في القرن العاشر ق. م، وكذلك منها العبريون الذين استقروا في فلسطين منذ القرن الثالث عشر ق. من وقد استولى الأشوريون على مملكتهم الشمالية في القرن السابع ق. من وهدم بختنصر ملك بابل حاضرتهم أورشليم في القرن السادس ق. من وأجلى سكانها إلى بابل.

ولا تلبث الآرامية أن تغلب على لغتهم، إلا أنهم ظلوا يحافظون عليها في تعاليمهم الدينية وفي بعض كتاباتهم.

والآراميون هم ثالث الموجات السامية الكبيرة التي خرجت من الجزيرة العربية قبل الميلاد، وقد بدأ خروجهم منذ منتصف الألف الثانى ق. م. والمظنون أنهم كانوا بدوًا رحَّلا يتنقلون شمالي صحراء النفرد في باديتى الشام والعراق ويتغلغلون إلى خليج العقبة غربًا وجنوبي الفرات شرقًا. وقد استطاعوا أن يكوِّنوا لهم إمارة بين بابل والخليج العربى، عرفت باسم كلد ومنها أخذ اسم الكلدانيين. ونراهم في القرن الثالث عشر ق. من ينزحون إلى أراضى الرافدين دجلة والفرات في الشمال، ويعرف هؤلاء النازحون باسم آرام النهرين. ولا نلبث أن نراهم في القرنين الحادي عشر والعاشر ق. من يبلغون أوج قوتهم فيغيرون على شمالي الشام ويكونون به دويلات صغيرة بين حلب وجبال طوروس، وقد استولوا على دمشق وأسسوا بها مملكة اشتبكت في حروب طويلة مع الفينيقيين والعبريين. وكان لها دور مهم في شئون التجارة فقد كانت قوافلها الصلة بين العراق والشام وآسيا الصغرى، وكانت تلتقي في شمالي الحجاز بقوافل اليمن وقوافل الثموديين من الحجازيين. وظلت للآراميين هذه الأهمية التجارية بعد سقوط دوبلاتهم، فإنها سرعان ما سقطت إذ لم تكن تجمعها وحدة سياسية تشد من أزرها أمام هجمات الأشوريين، فقضوا عليها واحدة بعد أخرى. وقد أخذوا عن الفينيقيين أبجديتهم بسبب اختلاطهم بهم في التجارة وكتبوا بها لغتهم. ولما سقطت دويلاتهم تفرقوا في ممالك غربي آسيا، فكان ذلك سببًا في انتشار لغتهم وثقافتهم وحضارتهم، إذ وجدت أمم العراق وإيران سهولة في أبجديتهم، مما جعل الدولة الكيانية تتخذها إحدى لغاتها الرسمية، وقد أصبحت اللغة اليومية للأشوريين والبابليين والعبريين والفينيقيين، وربما كان من الأسباب المهمة في ذلك سهولة نحوها بالإضافة إلى سهولة أبجديتها. وتقوم الحرب بين الفرس والروم ويتخذون من بلادهم ميدانًا لها، فيتأثرون بحضاريتهما، وبذلك أصبحوا ورثة الحضارات القديمة في هذا المحيط: الحاضرة الفارسية والرومانية والبابلية والأشورية والفينيقية. وقد كُتبت الأناجيل بالآرامية إذ كان يستخدمها حواريو المسيح كما كتبت بها معظم المؤلفات الدينية للكنائس الشرقية، ولها لهجات عدة، أهمها اللغة سريانية التي كانت منتشرة فيها بين النهرين، وقد اتخذتها المسيحية لغة أدبية لها، وهي اللغة التي كان يدرس بها الطب والعلوم

الطبيعية بجانب اليونانية في مدارس الرُّها فيما بين النهرين ومدرسة جُنْدَ يْسابور الفارسية وغيرهما. ومن لهجاتها أيضًا لهجة الصابئة فيما بين النهرين. وقد ظلت بلهجاتها المختلفة لغة حية في الشرق الأوسط إلى أن جاء الإسلام فقضت عليها وعلى لهجاتها لغة القرآن الكريم، وإن ظلت معروفة في بعض البيئات.

والموجة السامية الأخيرة هي موجة العرب الجنوبيين وما تفرع عنها من موجة حبشية، وقد بدأت في أواخر الألف الثاني ق. من متجهة إلى الجنوب وساحل المحيط الهندي. ويظهر أن جماعات ممن نزلت في تهامة اليمن هاجرت إلى السواحل الإفريقية، بقصد التجارة وتغلغلت في هضبة الحبشة وكونت هناك مملكة، نشبت بينها وبين العرب الجنوبيين سلسلة من الحروب انتهت بقضائها على دولتهم في سنة ٥٢٥م. وقد اعتنق حكامها المسيحية منذ القرن الرابع الميلادي.

٣

العرب الجنوبيون[١]

تقسم الظروف الطبيعية بلاد العرب قسمين كبيرين، تفصل بينهما صحراوات واسعة، تجعل حياة كل منهما تختلف عن الأخرى. فبينما تحضر الجنوبيون كان الشماليون في الحجاز ونجد يعيشون معيشة بدوية، إذ كانوا في الجملة بدوًا رحلاً ينتقلون وراء مساقط الغيث ومواضع العُشب والكلأ. ونشأت عن ذلك فروق واسعة بين القسمين المتناقضين فبينما ظل الشماليون يحيون في الغالب حياة بدوية إلا ما تسرب إليهم من الحضارات الأجنبية المجاورة في العراق والشام نهض الجنوبيون بحضارة لا تزال حصونها وهياكلها وقلاعها وأبراجها قائمة لم تندثر اندثارًا تامًا. وقد استطاعوا أن يَشيدوا سَدَّ مأرب لحبس الماء في فصل الأمطار، مما يدل على أنه كان لديهم نظام محكم لتدبير شئون الزراعة وتوزيع المياه، فقد اقاموا السدود والصهاريج، وكانت أرضهم مهيأة لتزدهر فيها حياة نباتات وأشجار واسعة بفضل مياه الأمطار الموسمية وطرق الرى الصناعية. ونشأت بينهم وبين بلاد العراق والشام ومصر علاقات تجارية واسعة فقد كانت قوافلهم تجوب الصحراء العربية شرقًا وشمالاً منذ الألف الثاني ق. من تحمل توابل الهند ورقيق إفريقية وأفاويه اليمن وعُروضها من اللُّبان والطيب والبخور وتعود محملة بعروض البلاد التي تتجر فيها.

وكان المعروف عن هؤلاء العرب الجنوبيين قليلاً، فهو لا يتجاوز إشارات وردت عنهم في العهد القديم وفي بعض الآثار المصرية والبابلية والأشورية وفي كتابات المؤرخين والجغرافيين من اليونانيين والرومانيين، ثم ما كتبه العرب عنهم بعد الإسلام، وتختلط به الأساطير. وظل تاريخهم غير واضح إلى أواسط القرن الماضي، فقد جد علماء الغرب في قراءة نقوشهم المنثورة على الأبراج والهياكل والنصب والأحجار، وهي مكتوبة بخط يسمى الخط المُسند، وهو خط سامي قديم، وقد

---

(١) أنظر في أصل تسمية العرب باسمهم كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١/ ١٦٩ وراجع في تاريخ العرب الجنوبيين كتاب التاريخ العربي القديم لطائفة من المسشرقين ترجمة فؤاد حسين على (نشر وزارة التربية والتعليم) وأنظر تاريخ العرب قبل افسلام لجواد على ١/ ٣٧٥، ٢/ ٨-٢٧٦، ٣/ ١٣٦-٢١٤.

عرف هؤلاء العلماء اللغة التي كتبت به ولهجاتها، فهي لغة سامية قريبة من الحبشية والعربية الشمالية انبثقت فيها لهجتان أساسيتان هما المعينية والسبئية.

ومن هذه النقوش استطاع الباحثون أن يعرفوا الحضارة العربية الجنوبية بدياناتها وآلهتها وأنظمتها الحكومية ودولها وملوكها، واستقر بينهم أنه كانت هناك خمس ممالك هي مملكة مَعين وكانت حاضرتها معين في الجوف اليمنى ثم مملكة سبَأ في جنوبيها وعاصمتها مأرب، ومملكة قتَبان في الجنوب الغربي لسبأ وعاصمتها تِمْنَع، والمملكة الأوْسانية جنوبي قتبان، ثم مملكة حضرموت وحاضرتها شَبْوة. ويظهر أنه كان للمعينيين دولة قوية منذ القرن الثاني عشر ق. من وقد سيطروا على القتبانيين والحضرميين، أو بعبارة أدق سيطروا على طريق القوافل التجارية لا في الجنوب فحسب، بل أيضًا على طول الطريق إلى الشمال، فقد وجدت نقوش معينية في شمالي الحجاز بدادان في منطقة العُلا الحالية وفي الحِجْر أو مدائن صالح، مما يدل على أنهم أنشأوا في هذه الجهات مراكز لقوافلهم التجارية كي تحميها، وأغلب الظن أنه كان لهم بها حاميات نزلت بها بعض عشائرهم. ومع مرور الزمن غلبت عليهم طوابع العرب الشماليين. فكانوا بذلك أول من حمل الحضارة الجنوبية إلى إخوانهم في الشمال.

ولا نصل إلى القرن السابع ق.م. حتى يغلب السبئيون على المعينين ويموا سلطانهم بعد ذلك على الاتحاد الجنوبي كله، كما يمدونه على مراكز المعينيين في الشمال، وقد تحولت إلى أيديهم أزمة القوافل التجارية، واتخذوا مأرب حاضرة لهم، وقصة سَدِّها وخرابه ومشهورة، وكذلك قصة ملكتها بلقيس مع سليمان عليه إسلام. وحدث حوالي سنة ٢٧٠ ق.م أن أنشأ بطليموس الثاني أسطولا بحرياً في البحر الأحمر يحمل إلى مصر عُروض الهند وإفريقية الشرقية فأحدث ذلك اضطرابًا في شئون السبئيين الاقتصادية، ونازعهم ملوك رَيْدان أصحاب ظَفارِ وغلبوا عليهم وعلى الدول الجنوبية منذ سنة ١١٥ ق.م. وكانوا يتلقبون باسم ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمنات، وهم الحميريون. ودولتهم آخر الدول العربية الجنوبية، ولا نصل إلى سنة ٢٤ ق. من حتى نجد إليوس جالوس وإلى الرومان على مصر يجهز حملة كبيرة لفتح بلاد الحميريين والاستيلاء على ما بأيديهم من مفاتيح تجارة التوابل والأفاوية، وفشلت حملته فشلاً ذريعًا. غير أن الرومان اتجهوا إلى الملاحة في البحر الأحمر، ويقال إنهم استولا على مياه عدن واتخذوها قاعدة لتموين

سفنهم، فشلّوا بذلك تجارة الحميريين وساءت أحوالهم الاقتصادية، فأهملوا شئونهم العمرانية، وأخذ الخراب يدب في البلاد، وظهر لهم خصم ثان هو ملوك الحبشة الذين حاربوهم واستولوا على بلادهم في منتصف القرن الرابع الميلادى وظلوا بها نحو عشرين عامًا، عادت بعدها الدولة الحميرية، ولكنها لم تعد إلى سابق قوتها، فإن القبائل الشمالية عادت بعدها الدولة الحميرية، ولكنها لم تعد إلى سابق قوتها، فإن القبائل الشمالية أخذت تُغير عليها كما أخذ كثير من عشائرها يهاجر إلى الشمال. وفي نقوشهم ما يدل على أن الأعراب نزلوا بديارهم منذ القرن الرابع الميلادى واستقروا فيها، وقد أخذت لغتهم تتغلب في بعض الجهات على لغة البلاد الأصلية كما أن من هاجر من عرب الجنوب إلى الشمال غلبت عليه لغة الشماليين، مما أعد لانتصار العربية الشمالية على العربية الجنوبية في أواخر العصر الجاهلي.

وفي هذه الأثناء تغلغلت اليهودية في الجزيرة العربية منذ اضطهد أباطرة الرومان اليهود في القرن الأول للميلاد، واندفعت بعثات دينية مسيحية إلى الجنوب، واعتنقت مدينة نجران في القرن الخامس هذا الدين الجديد، وربما كان السبب في هذه البعثات المنافسة الشديدة بين فارس وبيزنطة. وأفزع ملوك حمير تغلغل النصرانية في ديارهم، خوفًا من تحولها إلى البيزنطيين، فناهضوها وأيضًا فإنهم كانوا يخافون من ملوك الحبشة المسيحيين أن يدخلوا عن طريقها بلادهم. ونشب هناك صراع حاد بين اليهودية والنصرانية، ولا نلبث أن نرى ذانواس آخر الملوك الحميريين يعتنق اليهودية ويحاول القضاء على المسيحيين في نجران، فأوعزت بيزنطة إلى النجاشي أن يغزو اليمن، فغزاها سنة ٥٢٥ واستولى عليها وضمها إلى بلاده. وظل هذا الاحتلال الحبشي نحو خمسين عامًا، ثارت فيها اليمن ثورات عنيفة، وأخيرًا استنجد أهلها بالفرس أعداء بيزنطة، فردوا الأحباش وظلوا بها حتى سنة ٦٢٨م إذ اعتنق بأذان عاملهم الإسلام. وبذلك ينهي التاريخ القديم للعرب الجنوبيين.

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على أن عرب الجنوب لعبوا دورًا واسعًا في تاريخ الحضارة العربية القديمة، وكانت حضارتهم عربية صافية لم تأتهم من الخارج، بل نمت وتطورت في الداخل، إذ كان لهم قوانينهم وأنظمتهم ودساتيرهم، وكان لهم قَدَمٌ راسخة في عمارة القصور والهياكل وتشييد السدود. وكانوا يؤلهون السيارات الفلكية والنجوم، وأثرت ديانتهم الوثنية في العرب الشماليين إذ

يُظَنّ أنهم أخذوا عنهم- كما أخذوا عن الآراميين- عبادة الكواكب، وكانت تقوم على أساس ثالوث هو القمر واسمه عند المعينيين ود، وكان إلههم الأكبر، وتليه الشمس التي اعتبروها زوجه وهي اللات، ومنهما ولد عثر أو العزى أى الزهرة أو فينوس. وبجانب هذا الثالوث كان عندهم آلهة أخرى ترمز لبعض النجوم أو بعض الطير أو بعض مظاهر الطبيعة، وكانوا يقدمون لها القرابين ويبنون الهياكل ويقوم عليها كهنة ذوو نفوذ كبير. ويظهر أنه كان لهم أدب ديني كثير، إلا أن الإسلام قضى عليه كما قضى على الأدب الوثني في الشمال. وقد حملوا مع قوافلهم وهجراتهم دينهم وحضارتهم إلى العرب الشماليين، فأثروا فيهم آثارًا بعيدة.. وظلوا حتى ظهور الإسلام يشكلون عنصراً مبايناً لهم، على الأقل من حيث النسب، فكانوا يُدْعَوْن القطحانيين أواليمنيين، بينما دعى عرب الشمال باسم العدنانيين أو النزاريين. ويلاحظ أن قبائلهم المهاجرة اختارت في الأكثر جوار الأمم المتحضرة، فنزلت غسان وقضاعة ومن إليهما في الشام ونزلت لخم في العراق. ومنهم من نزل في داخل الجزيرة وأظهر ميلا إلى التحضر والاستقرار كالأوس والخزرج في المدينة وكندة في الشمال. على أن من تم منهم اندماجه في البدو تلاشت فيه هذه النزعة مثل طيئ في جبلي أجأ ولسمى. ومن يتعقب القبائل القحطانية في الإسلام يرى أنها كانت تحترم النظام المطلق، بينما كان يمقته النزاريون.

٤

العـرب الشماليـون[١]

هم العرب العدنانيون الذين كانوا يسكنون في الحجاز ونجد وتمتد عشائرهم وقبائلهم إلى باديتي الشام والعراق، وقد ظلوا يعيشون معيشة صحراوية بدوية تعتمد في أكثر الأحيان على رعي الإبل والأغنام. ولم تهيئ لهم هذه الحياة الاستقرارية ي سكنى دائمة، إلا حيث توجد بعض الواحات في الحجاز. ويظهر أنهم انشأوا في بعض الأزمنة مملكة لهم بالحوف (دومة الجندل) في أقصى الشمال بين العراق والشام، وقد خضعت لنفوذ الأشوريين إذ نرى ملوكهم يفخرون بالانتصار عليها. كما نراهم يفخرون بالانتصار على الثموديين في شمالي الحجاز حيث كانوا يقيمون في العُلا والحِجْر (مدائن صالح). وقد اتخذ نابونيد آخر ملوك دولة بابل الثانية أو الحديثة تيماء حاضرة له من سنة ٥٥٠ إلى سنة ٥٤٥ ق.م مما يدل على أنه كان بها حضارة زاهية.

وكل الدلائل تدل على أن العرب الشماليين لم يتجمعوا قبل الميلاد في وحدة سياسية تجمع شملهم، فقد كانت طبيعة بلادهم تدفعهم إلى التشتت والتفرق والانقسام، ولم يهتدوا في أثناء ذلك بهدى كهدى الإسلام بجميع كلمتهم ويؤلف بينهم، ويجعل منهم دولة واحدة، تلعب دورًا واضحًا في التاريخ القديم. وقد كشفت نقوش آرامية في تيماء الواقعة شمالي مدائن صالح تدل على أنه قامت فيها مستعمرة آرامية تجارية في القرن الخامس ق.م. وكان للمعينيين مستعمرة في ناحية "العُلا" شمالي الحجاز، كُشفت فيها نقوش معينية كثيرة، وكانت تسمى معين مُصْران، وكان سكانها من عرب الجنوب، وقد نقلوا إليها عباداتهم وهياكلهم المقدسة، وما زالوا ناشطين في التجارة، حتى نشأت دولة النبط في سلع "بطرا"، فكانت هي التي تنقل تجارة الجنوبيين إلى الشام ومصر، حتى إذا دالت دولتهم في مستهل القرن الثاني الميلادي حملها اللِّحْيانيون الذين كانوا ينزلون في دادان (العلا الحالية).

---

(١) أنظر في تاريخ العرب الشماليين كتاب تاريخ العرب قبل افسلام لجواد على ١/ ٢٢٠-٣٧٤، ٢/ ٢٧٧ وما بعدها، ٣/ ٥ وما بعدها ٣/ ٤٢٣ وما بعدها.

واللحانيون عرب شماليون، كتبوا نقوشهم بالخط المعيني المسند مما يدل على أثر الجنوبيين فيهم، ولعلهم كانوا يختلطون بقوم منهم، وقد كتب الثموديون، الذين كانوا يقيمون هم أيضًا في شمالي الحجاز وكانوا عربًا مثلهم، بهذا الخط الجنوبي، الذي انتشر إلى منازل العرب في الصفا بحوران جنوبي دمشق، مما يؤكد علاقة وثيقة بين هذه الأجزاء وعرب الجنوب حين كانوا يسيطرون على طريق القوافل التجارية من القرن الثامن إلى القرن الثالث ق. من وهو القرن الذي قامت فيه إمارة عربية في شمالي الجزيرة هي إمارة النبط، فقد كان أهل هذه الإمارة يأخذون عن الجنوبيين تجارتهم ويحملونها بدورهم إلى الشام ومصر، واتخذوا "بطرا" حاضرة لهم، هكذا ورد اسمها عند اليونان ولعله ترجمة لاسمها الذي جاء في التوراة وهو "سلع"، وكانت الحِجْر "مدائن صالح" حاضرتهم في الجنوب بينما كانت بُصْرى حاضرتهم في الشمال. ويظهر أن قبائل من هؤلاء النبط كانت قد سبقت إلى الإغارة على بلاد الآراميين شمالاً، فتحضرت بحضارتهم واستخدمت كتابتهم الآرامية في نقوشها، بينما ظلت تتكلم العربية في أحاديثها اليومية. وبذلك نلتقى عند هؤلاء النبط بنقوش عربية كتبت بالخط الآرامي على نحو ما التقينا عند اللحيانيين والثموديين بنقوش عربية كتبت بالخط المعيني المسند، غير أن الخط الآرامي هو الذي انتصر فقد تطورت نقوشه حتى انتهت إلى الخط العربي الذي أشاعه الإسلام.

والمظنون أن الأنباط لم ينزحوا من نجد إلى شمالي الحجاز، بل نزحوا من بادية الشام، واستطاعوا أن ينهضوا بحضارة راقية لا تزال تدل عليها آثارهم في بطرا حاضرتهم الكبيرة. وقد ظلت دولتهم نحو أربعة قرون، من القرن الثالث ق.م. إلى أوائل القرن الثاني الميلادي، وكانت العلاقة بينهم وبين البطالسة ثم بينهم وبين الرومان حسنة، إذ حالفهم ولم يتعرضا لاستقلالهم حتى كانت الفتنة اليهودية على عهد طيطوس، فقضي الرومان على استقلالهم وضموا بلادهم إلى دولتهم الرومانية سنة ١٠٦ للميلاد.

وعاد العرب الشماليون إلى الظهور في مملكة تدمر شمالي بادية الشام في أثناء القرنين الثاني والثالث الميلاديين، وكانت السيادة فيها لهم، غير أن السكان كان أكثرهم من الآراميين. ووقفت تدمر صامدة خلال المنافسة الشديدة بين روما والفرس لخطة حياد التزمتها، زادت في قوتها ومنعتها، وأصبحت من أهم المراكز التجارية. وبلغ من علو شأنها أن استولى ملكها أذينة على

سوريا كلها واعترف به الرومان إمبراطورًا على المشرق، إلا أنهم عادوا فنكثوا عهودهم في عهد زنوبيا (الزباء) إذ حاربوها وقضوا عليها سنة ٢٧٣م ودمروا تدمر فلم تقم لها بعد ذلك قائمة. وظلت سيرة هذه الملكة وأبيها أذينة في ذاكرة العرب إلى ما بعد الإسلام، وإن شابتها الأسطورة وبعدت عن أساسها التاريخي الصحيح.

٥

النقوش ونشأة الكتابة العربية[١]

لا يكاد يخلو حَجر في جنوبي الجزيرة العربية وقلبها وشماليها من نقش تذكارى نقشه كتاب محترفون أو غير محترفين من الرعاة ورجال القوافل، يذكرون يه أسماء آلهتهم متضرعين إليها أن تحميهم، وقد يذكرون ما يقدمون إليها من قرابين، وقد يكتبونها على قبورهم مسجلين أسماءهم وأسماء عشائرهم وما قام به الميت من أعمال وقد يودعونها بعض قوانينهم وشرائعهم.

ولا تخلو ديار أمة سامية من هذه النقوش التي أتاحت لعلماء الساميات اكتشاف تاريخ هذه الأمم من جهة وقيام دراسة اللغات السامية وخصائصها ومعرفة تطورها ومقارنها بغيرها من أخواتها من جهة ثانية. وبذلك وقفوا وقوفًا دقيقًا على حقائق هذه اللغات وحضارات أهلها وثقافاتهم ودياناتهم وكل ما اتصل بهم من رقي وتطور على مر العصور والأزمان.

وقد عُرف الأكديون في العراق بخطهم المسماري أو ألإسفيني، بينما عرف عرب الجنوب بخطهم المسند، ومنه نشأ الخط الحبشي وخطوط اللهجات العربية الشمالية القديمة وهي اللحيانية والثمودية والصفوية. واللحيانيون- كما قدمنا- قبيلة عربية شمالية، كانت تسكن في منطقة العلا، ونراهم يستعملون "ها" أداة للتعريف بدلاً من أل، وقد اختُلف في تاريخهم، فمن الباحثين من يرجعهم إلى القرون الأولى ق. من ومنهم من يتأخر بهم إلى ما بعد الميلاد، بل منهم من يتأخر بهم إلى القرن الخامس إذ ضعفوا وتلاشوا في قبيلة هذيل. وعدّهم الهمداني من بقايا جُرْهم، ولعله يشير بذلك إلى صلتهم باليمنيين ويظهر أنهم كانوا يدينون لهم بالولاء. أما الثموديون فيعود تاريخهم إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون، وقد عاشوا إلى ما بعد الميلاد وكانت منازلهم كما مرّ بنا في الحِجْر (مدائن صالح) وحولها، ويظهر أنهم أصيبوا بكارثة عظيمة، فثارت بهم بعض الزلازل أو

---

(١) أنظر هنا كتاب أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل افسلام لخليل يحيى نامى (بحث في مجلة كلية الآداب المجلد الثالث، العدد الأول) وكتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج١ ص١٠ وج٣ ص٤٢٣ وما بعدها، ج٧ ص٣٦ وما بعد=ها وكتاب تاريخ الأدب العربي لبلاشير (ترجمة إبراهيم الكيلاني – طبع دمشق) ج١ ص٧٠ وما بعدها.

بعض البراكين، وفي القرآن الكريم "فأخذتهم الرَّجْفة فأصبحوا في دارهم جاثمين". وقد خلَّفوا كثيرًا من النقوش كتبوها بالخط المسند المعيني. وهم مثل اللحيانيين والصفويين كانوا يستخدمون "ها" أداة للتعريف بدلاً من أل. وأما الكتابات الصفوية فعُثر عليها في الحرّة الواقعية بين جبل الدروز وتلول أرض الصفا. وكلمة الصفويين لا تعني شعبًا معينًا أو قبيلة معينة، إنما هي اصطلاح حديث للدلالة على تلك الكتابات التي عُثر عليها في تلك الجهات. وقد عُرف من دراستها أنها كتبت بالخط المعيني وأنها لهجة عربية قديمة كالثمودية واللحيانية، وكثير من نقوشها يرجع إلى القرون الأولى للميلاد، ويظهر أن من كتبوها كانوا بين التبدي والتحضر، فمنهم البدو الرعاة ومنهم الفلاحون، ولهم قرى ومزارع، وربما كان لهم تجارات.

وهذه النقوش الصفوية والثمودية واللحيانية عربية كما قدمنا برغم أنها كتبت بالخط المعيني الجنوبي، فخصائصها اللغوية قريبة من خصائص العربية التي نزل بها القرآن الكريم، وإن اختلفت عنها في أداة التعريف وفي بعض الصفات اللغوية، إلا أنها على كل حال تصور طوراً من أطوار اللغة العربية الشمالية، وقد احتوت على كثير من أسماء الرجال وأسماء الآلهة والأصنام.

وبجانب هذه النقوش نجد نقوشًا أخرى بالخط النبطي، وهي تنتشر في بطرا حاضرة ملكهم وما حولها وفي الحِجْر حاضرتهم الجنوبية وبُصْرى بحوران في الشام عاصمتهم الشمالية وما يتصل بهذه الجهات في شرقي الأردن وجبل الدروز، وقد مر بنا أنهم كانوا الصلة بين العرب الجنوبيين وحوض البحر المتوسط، وبلغ من قوتهم أن كان يخشاهم اليهود وبقية أمم الشام حتى أهل روما كانوا يخشونهم، فعلموا على القضاء على دولتهم حتى تم لهم ذلك كما قدمنا سنة ١٠٦ للميلاد. ولم ينته بذلك تاريخهم، فنقوشهم تستمر إلى القرن الثالث الميلادي، ويظهر أنهم تلاشوا بعد ذلك في العرب. وكانوا يتكلمون في أحاديثهم اليومية العربية، إلا أنهم اختلطوا بالآراميين عن طريق التجارة وأخذوا عنهم أبجديتهم أو خطهم وكتبوا به نقوشهم، ولذلك قد يعدهم بعض الباحثين من الآراميين، ولكن من المحقق أنهم كانوا عربًا يتخاطبون بالعربية.

ولما سقطت دولتهم وانتشروا في الحجاز ونجْد أخذ شيوخ العرب وأمراؤهم يتخذون خطهم في كتابة نقوشهم وهجروا الخط اللحياني والثمودي والصفوي. وسرعان ما تطور هذا الخط النبطي الآرامي إلى الخط العربي الذي كُتب به القرآن الكريم والمؤلفات الإسلامية. وهناك

روايات عند المؤرخين المسلمين تزعم أن الخط العربي منشؤه الحيرة وأنه نُقل منها إلى مكة والحجاز. غير أن هذه الروايات لا تتفق ووثائق النقوش التي كشفت في الحجاز ودرسها علماء اللغات السامية، فقد وجدوا نقوشًا حجازية وغير حجازية تصور انتقال الخط الآرامي إلى الخط نبطي، ثم انتقال هذا الخط إلى الخط العربي. والمعروف أن الحيرة قبيل الإسلام كانت نصرانية وكانت تزخر بالثقافة السريانية، كما كانت تكتب بالخط السرياني قلم المسيحيين في هذه الأنحاء. ولا يعقل أن يكونوا هم الذين تطوروا بالخط النبطي واشتقوا منه الخط العربي، لأنه لم يشع في ديارهم ولأنه كان خط الوثنيين في شمالي الحجاز. وقد يكون مرجع هذا الوهم في روايات المؤرخين الإسلاميين أن الخط الكوفي نما وازدهر في الكوفة، فظنوا أن هذه البيئة هي التي ابتكرت الخط العربي وأنه نما وتطور في الحيرة.

والحق أنه إنما حدث له هذا النمو والتطور في الحجاز نفسها، فقد كانت بها حياة تجارية مزدهرة، جعلتهم يأخذون الخط المعيني أولاً، ويتطورون به إلى خطوطهم اللحيانية والثمودية والصفوية. ثم لما ظهرت مملكة النبط واستخدمت الخط الآرامى وتطورت به، وتفرق أهلها بعد سقوطها في داخل الجزيرة وعلى طول طريق القوافل التجارية نشروا قلمهم النبطي، فهجر عرب الحجاز القلم المعيني وأخذوا يحاولون النفوذ من الخط النبطي إلى خطهم العربي الجديد متطورين به ضروبًا من التطور حتى أخذ شكله النهائي.

وليست المسألة مسألة فرض واحتمال، وإنما هي مسألة نقوش حَملت إلى علماء الساميات الدليل القاطع الذي لا مطعن فيه على هذه الحقيقة، فقد عثروا على نقوش في شمالي الحجاز وعلى طول طريق القوافل إلى دمشق تثبت تطور الخط النبطي تطورًا سريعًا إلى الخط العربي. وأهم هذه النقوش على الترتيب نقش عَثر عليه ليمان في قرية أم الجمال غربي حوران، ويرجع تاريخه إلى سنة ٢٧٠م وهو لفهر بن سُلَّمْ الذي كان مربياً لجذيمة ملك تنوخ، وخطه نبطي إلا أنه يمتاز بظهور روابط بين الحروف. ويليه نقش النمارة الذي اكتشفه دوسو وماكلر سنة ١٩٠١ على بعد ميل من النَّمارة القائمة على أطلال معبد روماني شرقي جبل الدروز، بالقرب من الأماكن التي عُثر فيها على الكتابات الصفوية، وقد كُتب شاهدًا لقبر ملك من الملوك اللخميين يُسمى امرأ القيس بن

عمرو، وأرِّخ بشهر كسلول من سنة ٢٢٣ بتقويم بُصْرى وهو يوافق شهر كانون الأول (ديسمبر) من سنة ٣٢٨م وهذا نصه:

تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج

وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرَّب مذحجو عكدي وجا

بزَجَي في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه

الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه

عكدي. هلكسنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولَده

ويلاحظ أن الكاتب بدأه في السطر الأول بكلمة تي الإشارية التي للمؤنث لأنها داخلة على نفس ولعلها هنا بمعنى جسد، وقد استخدم ذو بمعنى الذي، وهي لغة معروفة بين بعض القبائل مثل طيئ، كما استخدم كلمة أسر بمعنى عصب وعقد، وهو من معانيها في المعاجم العربية. وقد حذف الألف من كلمة "التاج"، ولم يكونوا يثبتونها حينئذ. وليس في هذا السطر كلمة غريبة سوى بر التي استخدمها الكاتب بمعنى ابن وهي آرامية. ونراه في السطر الثاني يضيف واوًا عكدي فلعلها عكدياً، حذفت منها الألف، وفي المعاجم العكد: القوة. ويريد بالأسدين قبيلتي أسد. ونراه في السطر الثالث يستخدم كلمة بزجي من فعل زجا بمعنى دفع أى باندفاع، ومعنى حبج في المعاجم أشرف وكأنها استعملت في النص مصدرًا بمعنى مشارف أو حدود، وشمر من الملوك الحميريين. واستخدم كلمة نزل بنيه الشعوب بمعنى جعلهم على الشعوب. وفي السطر الرابع ووكلهن بإضافة نون التوكيد إلى الفعل بعد الضمير. ومعنى العبارة ووكله الفرس والروم. وفي السطر الخامس بلسعد ذو ولده أي ليسعد الذي ولده.

وواضح أن النص يمثل طورًا من أطوار اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم فكلماته جميعًا عربية ما عدا كلمة بر الآرامية، وقد استخدمت فيه أل أداة للتعريف. وإذا أردنا أن نكتبه ونقربه إلى لغتنا اليوم كتبناه على هذا النحو:

هذه نفس (قبر) امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلها الذي عقد التاج وملك قبيلتى أسد ونزاراً وموكلهم وشتت مذحجاً بالقوة وجاء.

باندفاع (بانتصار) في مشارف نجران مدينة شمر. وملك معدًا وولي بنيه الشعوبَ، ووكَّله الفرس والروم، فلم يبلغ ملك مبلغه.

في القوة. هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول، ليسعد الذي ولده

ولعل في هذا النص ما يدل على أن اللغة العربية التي سيشرفها القرآن الكريم بنزوله فيها كانت قد أخذت تبسط سلطانها إلى شمالي بلاد العرب منذ أوائل القرن الرابع الميلادي. وتوجد الروابط بين الحروف في هذا النص وتتخذ الحروف شكلاً أكثر استدارة.

ولهذا النص أهمية تاريخية بعيدة، فهو يحدثنا عن ثاني ملوك الحيرة جدود المناذرة ويذكر أنه ملك قبيلتي أسد وقبيلة نزار وملوكهم، وشتت قبيلة مذحج، وانتصر على حجموع نجران. ولعل هذه أول إغارة ثابتة تاريخيًّا لعرب الشمال على عرب الجنوب ومدينتهم نجران. ويحدثنا النص أيضًا أنه ملك معدًا وولي بنيه على الشعوب والقبائل الكبيرة، وقد عقد المعاهدات مع الفرس والروم، ولم يبلغ ملك مبلغه في القوة. وليس هذا كله ما يحدثنا به النص ولا كل دلالته، فوراء ذلك دلالة أعمق، إذ يقول هذا الملك ملك العرب كلهم، وتلك- ولا ريب- أول محاولة في إيجاد وحدة سياسية للعرب الشماليين، بعد ان دمر الرومان دولتيهم في بطرا وتدمر. على أن إمارة الحيرة لم تلبث أن خضعت للفرس، وقد خضع الغساسنة في الشام للبيزنطيين وأخذت البعثات المسيحية تغزو الشمال في غربيه وشرقيه. ولعل ذلك ما جعل العرب يلتفون حول مكة، وخاصة بعد أن فقدت اليمن استقلالها واحتلها الحبشة ثم الفرس. وقد نقلوا إليها من الجنوب والشمال أصنامهم، فكانت دار كعبتهم وعبادتهم الوثنية، وأخذت تقوم بما كانت تقوم به الثمن من نقل التجارة وعروضها بين المحيط الهندي وحوض البحر المتوسط.

ونمضي بعد نقش النمارة نحو مائة وثمانين عامًا، فنلتقي في زبد الواقعة جنوبي شرق حلب بنقش وجد على باب أحد المعابد هناك أرخ سنة ٥١٢م وفيه نرى خصائص الكتابة العربية الجاهلية تتكامل. ومن غير شك حدثت تطورات متعددة بينه وبين نقش النمارة، أعدت لهذه الصيغة العربية الخالصة التي نجدها فيه أو بعبارة أدق في خطِّه. وعلى شاكلته نقشَ حَّران اللَّجا الذي عُثر عليه في الشمال الغربي لجبل الدروز جنوبي دمشق وهو مؤرخ بسنة ٥٦٨م.

ومعنى هذا كله أن الخط العربي نشأ وتطور شماليّ الحجاز، وأنه لا يرجع في نشأته وتطوره إلى بلاد العراق، فتلك الوثائق السابقة دليل لا يرقى إليه الشك في أنه نشأ من الخط النبطي وتطور حتى أخذ صيغته النهائية في أوائل القرن السادس الميلادي في تلك البيئة الوثنية العربية الخالصة. وهو يختلف اختلافًا تامًّا عن الخط الكوفي ذي الزوايا الذي يُرْسَم في أشكال مستديرة. فالحجاز هو موطنه، وهو الذي نشره في محيط العرب الشماليين على طول الدروب والطرق التي كانت تسلكها قوافل المكيين التجارية.